حمى الاستهلاك وعبادة المال

الأربعاء 2012/8/8 المصدر : الأنباء عدد المشاهدات 2940

بقلم : فيصل الزامل

تبذل في الولايات المتحدة جهود لتقليل سرعة قطار الاستهلاك الذي يجتاح الطبقة الوسطى في سباق محموم على امتلاك المال على حساب بقية الاحتياجات الأخلاقية، مثال للتوضيح: «لجأت إحدى المدارس التي تعتني بالأطفال نيابة عن الأهل العاملين الى وضع رسم تأخير على وصول الأهل لتسلم الأبناء وكانت النتيجة هي زيادة معدل التأخير لأنه يعني فرصة للعمل أكثر وتحصيل نقود أكثر على حساب طفل يحتاج حنان الأسرة، وحتى عندما أرادت تلك المدرسة الرجوع الى النظام القديم استمر الأهالي في التأخر فقد تم تخريب شعورهم بالمسؤولية بمجرد سماعهم رنين النقود»، في السياق نفسه يتساءلون هناك عن جواز تحفيز الأبناء على الدراسة أو القراءة لقاء عدد من الدولارات، بدلا من وسائل أخرى تثير حماستهم ولكنها تتطلب قضاء وقت أطول من الآباء مع الأبناء، المال يختصر الوقت!

هذا الموضوع لا يخص أميركا فقط، فقطار الاستهلاك السريع الذي انطلق من الولايات المتحدة اجتاح العالم، وهم هناك يحاولون إبطاء سرعته، يقول لي أحد المصرفيين: «أجريت مقابلات للتوظيف في البنك الذي أعمل فيه ولاحظت وجود عبارة «فترة تفرغ» في السيرة الذاتية لعدد من الذين التقيتهم، بعضهم تفرغ لسنة وغيره لستة أشهر، أو عندما سألت قالوا: بعد سنوات من العمل وجني المال نتفرغ للخدمات العامة في المدينة أو لمستشفى مسنين أو لخدمة الكنيسة، الشعور الذي نخرج به من هذا التفرغ لا يقدر بالمال، سعادة حقيقية لا صلة لها بالمعدة والماديات»، ومن يتابع أخبار تخصيص أثرياء مثل بيل غيتس، وارن بافيت، وغيرهما، لثروات بالمليارات لصالح الأعمال الخيرية يعلم ان جهود إبطاء قطار الاستهلاك وعبادة المال حقيقية، وبالنسبة لنا في منطقتنا فهناك تنافس على العطاء ليس بالنقود فقط بل بالوقت، ففي اليمن على سبيل المثال تقيم الآن هناك سيدة كويتية منذ شهور لرعاية الأيتام، ويتجول رجال من الكويت في بلاد كثيرة لبناء مشاريع خيرية في ظروف بالغة الصعوبة.

إبطاء قطار الاستهلاك يتطلب لفت انتباه الفرد الى وسائل أخرى لتحقيق السعادة تفوق في تأثيرها ملذات الطعام والشراب والملابس واقتناء أشياء جميلة تتحول الى «قبيحة» بعد فترة قصيرة نبحث عمن يأخذها ويخلصنا منها، بينما يحقق إدخال السرور على الآخرين سعادة لا تمحوها الأيام.

كلمة أخيرة: رأى عمر بن الخطاب جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في السوق يومين متتاليين يشتري لحما، فلما سأله أجاب: «اشتهينا اللحم» فقال له: «أو كلما اشتهيتم اشتريتم، ما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لابن عمه وجاره».

وكان يأتي مجزرة الزبير بن العوام بالبقيع، فيضرب بالدرة من يكثر من الشراء والاستهلاك الزائد قائلا: «هلا طويت بطنك يومين».

ولما ارتفعت الأسعار في خلافته رضي الله عنه واشتكى الناس، رد عليهم: «أرخصوها بالاستغناء» أي بترك الشراء، فهما قاعدتان «أو كلما اشتهيتم اشتريتم» و«أرخصوها بالاستغناء» تمثلان أسسا متينة لحماية المستهلك.

وكان يقول أيضا: «لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنه مسخطة في الرزق».. يعني من كان كلامهم كله في المشتريات والمقتنيات والبذخ، فيزداد تدافع الناس على الشراء، ومن لا يشتري تتحاوطه هموم صنعها لنفسه بنفسه.

faisalalzamel@yahoo.com